علاقة الانسان بالفلك عند إخوان الصفا

دكتوره

منى محمد سليم

مدرس العقيدة والفلسفة بالكلية

﴿٤٠١﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

علاقة الفلك بالانسان عند إخوان الصفا

علم الكواكب والنجوم من العلوم الهامة التى اعتنى بها العرب واعتبروها شاهداً قوياً على عظمة الله وقدرته فاكتسب بذلك معنى دينياً عميقاً، فضلاً عن حاجتهم الماسه إلى ذلك العلم لمعرفة أوقات الصلاة، ومعرفة الأهله لإثبات الصيام والاعياد واتجاه القبله، ولقد تعمق العرب فى هذا العلم وشغفوا به وجمعوا ما كتبه اليونان والهنود ثم صححوه من أخطائه وطهروه من أدران التنجيم، وأضافوا إليه أشياء هامة واكتشافات جليله كانت السبب المباشر لتقدم هذا العلم على أيدى الأوربيين.

وقد اهتم الخلفاء كالمنصور والرشيد والمأمون بنقل كتب الفلك إلى العربية. وكذلك أهتم به كثير من فلاسفة الاسلام كالكندى. وكذلك الامام فخر الدين الرازى. وبذلك نشطت الحركة العلمية فى علم الفلك ورصدت الكواكب والنجوم ووضعت الجداول الدقيقة لها مما كان له الشأن العظيم عند البحث فى تاريخ الكواكب وحركاتها ومواقعها[1].

إلا أن لدراسة الفلك عند إخوان الصفا طبيعة خاصة، حيث انهم يربطون بين الكواكب والنجوم وبين الانسان وأخلاقه، ويذكر إخوان الصفا كثيراً من تأثيرات الأفلاك فى الجنين من يوم مسقط النطفة إلى ان يولد.

(١) حسن محمد الشرقاوى - المسلمون علماء وحكماء ص ٢٠٦.

﴿٤٠٢﴾

كما يرجعون السبب فى اختلاف إمزجه الناس إلى اسباب فلكية بمعنى أنها أشياء فاضت على الانسان فلا اختيار له فى ذلك وليس هذا فحسب بل يرون أن جميع ما يجرى على وجه الارض فانه يحدث بتأثير فلكى وتدبير سماوى طبقاً لنظرية الفيض عندهم. فالكواكب فى اعتقادهم ملائكة وهم مدبرون لعالم الأفلاك.

ولا شك أن اخوان الصفا بقولهم هذا قد جانبوا الشريعة الاسلامية.

هذا ما سأحاول أن أبينه من خلال خطه بيانها كالتالى:

أولاً مدخل: بينت فيه من هم أخوان الصفا وعصرهم ومذهبهم.

ثانياً: فصلين:

الفصـــــل الأول: تأثير الكواكب والنجوم فى الانسان

أ - تأثير الكواكب فى بنية الانسان.

الفصـل الثـــانى: تأثير الكواكب فى الاخلاق

أ - أقسام الاخلاق.

ب- نظرية الفيض وعلاقتها بالاخلاق.

خاتمـــــــــــة: بينت فيها موقف الاسلام من تأثير الكواكب والنجوم.

أهم النتائج - المصادر.

﴿٤٠٣﴾

مدخـل

من هم أخــوان الصفـا

تضاربت أقوال العلماء والمؤرخين فى شأن الأخوان وفى من يكونون وما يكون مذهبهم:

حيث سعت هذه الجماعة عن حجب هويتهم عن مجتمعهم ومن ثم عن من جاءوا بعدهم وقد نجحوا فيما سعوا إليه إيما نجاح.

كذلك الباحث حول الرسائل لا يلبث ان يصطدم بالعديد من الأراء وهى أراء تتناقض فيما بينها فى كثير من الإحيان. هذا كله أدى بالباحثين إلى الاختلاف حول حقيقتهم وحقيقة الأهداف التى يسعون إليها كذلك لم تمثل هذه الجماعة لدى المؤرخين بؤرة أهتمام واسعة كما هو الحال لدى بعض الفرق الأخرى.

ويأتى تناولى لأخوان الصفا من قبيل إلقاء الضوء على فرقة لم تنل حظها الكافى من الدراسة وتحتاج إلى مزيد ابرازو زيادة توضيح حيث انها كما أشرت سابقاً تمثل لغز فى التاريخ الاسلامى وسر من أسرار العقائد الباطنيه وكنز فلسفى لم يتسنى بعد معرفة ما فيه من نفائس لفهم الغموض من كل جانب وأحاطتهم السرية.

يقول القفطى فى ذلك:

«ولما كتم مصنفوها «أى الرسائل» أسمائهم أختلف الناس فى الذى وضعها، فكل قوم قالوا قولاً بطريق الحدس والتخمين»[1].

(١) ابو حيان التوحيدى؛ الامتاع والمؤانسة جـ ٢ ص ٥.

فذهب البعض إلى انها جماعة قامت لتقويض الدين الاسلامى وهدم أركانه وانهم من القرامطة ويعتمدون فى ذلك على نص ورد فى شأن هذه الجماعة لأبى حيان التوحيدى فى حوار دار بينهم وبين وزيره صمام الدولة احد امراء دولة بنى بوية فقد سأل الوزير ابا حيان التوحيدى عن هذه الجماعة فاجاب بانها جماعة تصاحبت بالعشرة وتلاقت بالمودة وان لهم رسائل مثبوثه عند الوراقين وهذا النص يقع فى قرابة عشرين صفحه وهو المصدر الوحيد الذى استقى منه كثير من الباحثين اراءهم حول هذه الجماعة»[١].

وآراى أن هذا الرآى «انها من القرامطة» ليس له وجه من الصحة ولا يكاد يعرب عن حقيقة هذه الجماعة، فأخوان الصفا من وجهة نظرى وبما قراءته فى الرسائل هى إحدى الجمعيات الاسماعيلية التى اسست على نمط الجمعيات الفيثاغورتيه وهذا ما يؤكده د/ النشار فى كتابه نشأة الفلسفه الاسلامية. من ان «رسائل اخوان الصفا إسماعيلية إذ تسودها الاصطلاحات الاسماعيلية وتنتشر فيها الاراء بالباطنية مما يتسق دائما مع المذهب الاسماعيلى وإن الاسماعيلية أرادت بوضع هذه الرسائل ان تثبيت معرفة الأئمة بعلوم باطنيه لا يعرفها سواهم، ويبدو هذا من محاولة هذه الرسائل الالمام بجميع نواحى الفلسفة الغنوصية[٢] من أفلاطونيه محدثة وفيثاغورتيه

(١) المرجع السابق.

(٢) الغنوصية تيار باطنى لا يطفو على السطح بسهولة، وهى كلمة يونانيه الأصل. معناها المعرفة. غير أنها أخذت بعد ذلك معنى اصطلاحيا هو التوصل بنوع من الكشف إلى المعارف العليا. أو هو تذوق تلك المعارف تذوقا مباشرا بأن يلقى فى النفس إلقاء فلا تستند على الاستدلال والبرهنة الفعليه.
ويذكر الباحثون أن الحركة الغنوصية حركة قديمة وهى مزيج من العقائد الفارسية الأرية، ومن العقائد الكلدانية السامية، مع غلبه الطابع الوثنى. وقد زعم بعض أباء

جديدة مختلطة مع العقائد الاسلامية.

ثم يجزم الدكتور النشار قاطعاً أن رسائل الاخوان عمل إسماعيلى بحت حيث يقول

وأود أن أنتهى من هذا إلى أن الدلائل قاطعة بأن رسائل اخوان الصفا عمل إسماعيلى بحت وكان يتخذ أداة لنشر الدعوة الاسماعيلية»[1].

ويذكر د/ محمود قاسم أن أخوان الصفا هم أنفسهم الإسماعيلية فى دور التستر فيقول أنهم ممثلوا المذاهب الغنوصية فى الحضارة الإسماعيلية وهم فلاسفة الاسماعيلية وليست رسائلهم إلا سجلات للمجافل السرية أو المجالس التعليمية التى كانت منتشرة فى عهد الدولة الفاطمية والتى مهدت لقيام هذه الدولة[2].

يؤيد هذا الرآى ايضاً «ان جماعة اخوان الصفا من الاسماعيلية»

التشابه الشديد فى رسائل إخوان الصفا وكثير من كتب الاسماعيلية. فالأخوان

= الكنيسه أن النزعة الغنوصية وليدة تزاوج بين المسحية، وبين حركات روحية أخرى. أبرزها اليونانيه والايرانيه واليهودية.
كل هذه الاراء تجعل من النزعة الغنوصية مزيجاً غير أصيل من افكار دينية متباينة الأصول، مما يجعلها تبدو كمذهب تلفيقى يجمع بين الفلسفة أفكار والدين ويقوم أساسا على أساس فكرة الصدور ومزج المعارف الانسانية بعضها ببعض.
مجمع اللغة العربية المعجم الفلسفى ص ١٣٣ ط الهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية ١٣٩٩ - ١٩٧٩م.
والدراسات والبحوث تفيد ان الغنوصية كمذهب باطنى عرفانى جمعت بالتلفيق خليطاً يونانياً وإسرائياً وفارسياً شرقياً، ثم مزجته مزجاً شديداً ومحكماً.

(١) نشأة الفلسفة الاسلامية جـ ٢ ص ٣٩٠ - ٣٩٢.

(٢) د/ محمود قاسم/ دراسات فى الفلسفة الاسلامية، ص ١١، ١٢ ط ١ سنه ١٩٦٦.

شديد والحذر والحيطة يأخذون بالتقية[١] أخذاً شديداً ويكثرون من التشديد فى اختيار أتباعهم ولا يوضحون لهم رموزهم وأسرارهم إلا تدريجياً.... وهذا دليل واضح على الصله بين المذهبين[٢].

وإذا كان إخوان الصفا على سبيل المثال ينهجون نزعة سرية غالية فإنهم ينكرون – أحياناً – أن يكون ذلك منهم تقية. فهم يقولون «إننا لا نكتم أسرارنا عن الناس خوفاً من الملوك ذوى السلطة، ولا حذراً من شغب جمهور العوام، ولكن صيانة لمواهب الله عز وجل لنا»[٣].

والحق إن هذا القول لإخوان الصفا يتضمن خوفاً من الحكام والناس على السواء وهو ليس إلا من قبيل إدعاء شجاعة مفتقده وذلك أيضاً من التقية.

ثانيا: زمانهم ومكانهم:

بعد ان تحدثت عن إخوان الصفا وبينت أنهم فرقة باطنية تعمل فى السرداب الداخلى أريد أن أبين هنا العصر الذى نشأت فيه هذه الجماعة لعلا نرى السبب فى ذلك التستر وتلك الغموض.

فمن البديهى إن أخوان الصفا لم يفكروا بمعزل عن بيئتهم الاجتماعية

---

(١) التقية: لغة هى الخوف والحذر والكتمان، أما من الناحية الاصطلاحية فهى ترك أركان الدين وفرائضه فى حالة مظنه الإكراه أو التهديد بالإيذاء وتشكل مسألة التقية أصلاً من أصول الاعتقاد لدى الشيعة إجمالاً ولدى الباطنية خصوصاً ولا يستطيع الشيعى أو الباطنى أن يخفى مذهبه ويكتم عقيدته فحسب، بل هو مطالب بذلك ويجب عليه ذلك وأن يبالغ فى الإخفاء والكتمان بل إن طوائف من الشيعة تقرر أن مالا تقية له لا إيمان له. لسان العرب ٤٠٢/١٥، دائرة المعارف الاسلامية ٤١٩/٥.

(٢) حنا الفاخورى/ تاريخ الفلسفة العربية – جـ ١ ص ٢٣٩ دار الجيل.

(٣) الرسائل ٢١٥/٤.

بكل ما فيها من مؤثرات ومن هنا كان الأهتمام بالنظر إلى إنتاجهم الفكرى فى إطار مجتمعهم وعصرهم من أجل إلقاء الضوء على حقيقة هدفهم. لان نتاج الفكر غالباً ما يكون فى نوعه وصبغته وطابعة ظاهرة تفسر بروح العصر والعوامل المختلفة التى تسيطر عليه.

وبناء عليه كان الاتجاه إلى تحديد زمان وجودهم أمراً ضرورياً لعلنا نستطيع من خلاله ان نفهم هذه الجماعة فهماً حقيقياً.

عاش إخوان الصفا بالبصرة فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى على الأرجح وقد اعتمد القائلون بذلك على نص ابى حيان التوحيدى الذى سبقت الاشارة إليه.

والمتتبع لتاريخ الاسلام السياسى والثقافى والاجتماعى فى تلك الحقبة يجد أنه بعد أن أتسعت رقعة البلاد التى امتدت إليها الفتوحات الاسلامية، سعى كل حاكم ولاية أو أقليم إلى أن يقيم لنفسه حكومة أو سلطة يضمن من خلالها بقاءه فى الحكم. كما نجد ان بعض هؤلاء الحكام بدأ فى الانفصال، أو ان شئت التمرد على الدولة الأم. هذا التمرد يتضمن، من جملة ما يتضمن، ضعف السلطة السياسية الرئيسية بحيث لم تعد لها سيطرة على البقاع التى تضمها. ومن شأن ضعف الحكم والحاكم، أن يؤدى إلى نتائج خطيرة[1].

ومن المسلم به ان الاضطراب السياسى ينشر بين المسلمين الوانا من الضعف ويلد لهم أشخاصاً خونه قد أفسد قلوبهم الطمع، والحرص والحرمان يقول د/ طه حسين فى ذلك إذا قرأت التاريخ فى ذلك العصر لن تظفر بيوم

(١) د. فيصل بدر عون – علم الكلام ومدارسة ص ٣٥٢.

خلا من دولة تسحق ومملكه تمحق ونفس تزهق ودماء تراق[١].

ولا شك أنه قد أثر فساد الحياة السياسية إلى نتائج خطيرة فمن الناحية الاقتصادية نجد كل ولاية سعت إلى أن تكون لنفسها نظاماً أقتصادياً بحيث تدافع من خلاله عن حريتها الاقتصادية الأمر الذى يضمن لها الهيبة وحسن الجوار وهنا حدث أن أصيبت عدالة التوزيع بخلل كبير فالهوة الاقتصادية بين أفراد الشعب كانت عميقه وواسعة فهناك الاغنياء غنى فاحشاً وهناك الفقراء فقراً مدقعاً. هناك من كان يهلك من الجوع. «أبو حيان التوحيدى وهو من هو» وهناك من فسد حاله بعد أن أصيب بتخمة مالية. ولقد كان من شأن هذه الفجوة الاقتصادية بين الناس بعضهم وبعض، أن يستشرى الفساد وأن تنتشر ظاهرة النهب والسلب وأن ينتشر قطاع الطرق واللصوص فى كل مكان. أضف إلى ذلك أن الحصول على مال للانفاق العام، ما كان أن يتم الا عن طريق اضافة ضرائب باهظة على المواطنين وما أدراك ما الضرائب....!! تلك التى ينجو منها الغنى بسهولة فى الوقت الذى لا يستطيع فيه الفقير المعدم أن يفلت منها مهما صغر شأنه. ولقد زادت الضرائب الامور سوءاً. إلى أن تضاعف من فقر الفقير وأن تضاعف ايضاً من ثروة الأغنياء[٢].

ولقد أثر فساد الحياة السياسية واختلال النظام الاقتصادى على الحياة الاجتماعية.

فالحياة الصالحة ليست إلا مزجاً يأتلف من سياسة مستقيمة وعدالة شاملة، ونظام أقتصادى معتدل ولكن كل هذه الخصال كانت مفقودة.

---

(١) د/ سناء خضر. النظرية الخلقية عند ابى العلاء المعرى بين الدين والفلسفة ص ٣٧.
(٢) د/ فيصل عون - علم الكلام ومدارسة، ص ٣٥٣.

فقد سادت الأوبئة انحاء البصرة وبغداد وهى قطبى الدولة الإسلامية وانهارت القيم الدينية وضعفت الاخلاق.

وكان كرد فعل لهذا الفساد والإنحلال أن ظهر تيار الزهد فى البصرة قوياً صارماً حتى أصبح اكثر انتشاراً. وصار مضرب المثل فى الإعراض عن الدنيا والإنصراف عن شهواتها.

وكان على بن أبى طالب يصف البصرة مكان ظهور أخوان الصفا لعبد الله بن عباس قائلاً:

«'إعلم أن البصرة مهبط إبليس ومغرس الفتن، فحادث أهلها بالإحسان إليهم وأحلل عقدة الخوف عن قلوبهم»[1].

ولا شك أن كل هذا آثار نقد «اخوان الصفا» فكان ظهورهم نتيجة طبيعيه لتلك الاحوال السياسية والاجتماعية.

يقول د/ طه حسين

«كتاب رسائل إخوان الصفا يمثل أصدق تمثيل وأقواه هاتين الظاهرتين المتناقضتين يمثل من جهه فساد الحياة السياسية الإسلامية فى ذلك الوقت لان الذين كتبوه جماعة لا نكاد نعرف منهم أحداً لأنهم كانوا يعملون من وراء ستار، وكانوا يعملون لغرض سياسى قبل كل شئ، فهم كانوا خصوماً للنظام السياسى القائم فى بغداد كما لم يكونوا انصاراً مخلصين للنظام السياسى القائم فى القاهرة لم يكونوا يرتاحون إلى خلافه العباسيين ولم يكونوا

(١) ابن الحديد - نهج البلاغة ٣/٢٠.

يحبون خلافه الفاطميين، وإنما كانت لهم أغراض سياسية»[١] ويعجب المرء كيف كانت الأحوال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية سيئة إلى حد بعيد ومع هذا كانت الناحية الثقافية على العكس من ذلك فى أوج نضجها وأزدهارها.

لقد أمتد الفتح الإسلامية إلى بلدان كثيرة بحيث أصبح المجتمع الاسلامى يضم جنسيات[٢] متعددة.. وكان لكل جنس من هذه الاجناس عادته وتقاليده الخاصة، كما كانت له أساطيرة وثقافته. ولقد أمتزجت هذه الثقافات بعضها ببعض من جهة، وهى معاً، من جهة أخرى، قد امتزجت بالثقافة العربية الاسلامية[٣].

ومما ساعد على تطور الحياة الثقافية وزكى المنافسة بين العلماء حرية التنقل من إمارة إلى إمارة دون أية قيود تفرض، كذلك أدى إنتشار الورق وسهولة الحصول على الكتب ونقلها وإن لم ينتقل صاحبها إلى المزيد من التواصل الفكرى والمنافسة العلمية بين هذه الإمارات، هذا بالإضافة إلى رباط اللغة العربية التى أصبحت لغة المثقفين، بل صفوه المثقفين من العرب وغير العرب وبفضل الإسلام الذى أكد أن الدين هو الرباط الأساسى بين الناس تمكن المسلمون من المحافظة على أواصر الوحدة العقلية زماناً طويلاً، فالعقيدة والعلم القائم على هذه العقيدة حفظت وحدة العالم الإسلامى رغم غدر

(١) حنا الفاخورى – تاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٢٢٥. مقدمة الرسائل ص ٧، ٩.

(٢) كل هذه الأجناس والطوائف الدينية احتكت بعضها ببعض فتعاونت حينا وتجادلت حيناً وتفاعل بعضها مع بعض حيناً آخر كل هذا أثر فى رقى العلوم. إذ قدم كل جنس من هؤلاء ذخائر ما لديه مترجماً إلى اللسان العربى. مما مكن الناطقين به من استيعابه وهضمه والإضافة إليه ما أمكن.

(٣) فيصل عون، علم الكلام ومدارسه. ص ٣٥٤.

الدهر وتقلبات الخط بالقواد والأمراء[١].

كان القرن الرابع بحق عصر النهضة العلمية فى الاسلام وقمة الرقى العقلى رغم كل ما يمكن قوله عن الفساد السياسى وما يرتبط به، بل ويرى البعض أنه ربما كان الفساد السياسى هذا عاملاً غير مباشر لرقى الحياة الثقافية ونهضتها ذلك أن العلماء لما رأوا سوء الأحوال السياسية وظلمها وعنتها واضطرابها، كرهوها، وأنصرفوا عنها إلى ميدان العلم وهو الملجأ الآمن المطمئن بل ان منهم من كان يأنف من الأتصال بأمير أو وزير أو يتعفف من زيارة ذوى السلطان مفضلاً بؤس العيش مع السلامة على رغد العيش مع الخوف اى ان الإعراض عن الساسة والحكام أو الإقبال عليهم والعيش فى ظل رعايتهم كانا من الأسباب المؤدية لرقى العلوم[٢].

كما تأثرت النهضة العلمية بالأمتزاج بين العلوم الوافدة مع أصحابها من أبناء الحضارات الأخرى كاليونانية والفارسية والهندية وغيرها فى هذا القرن مما أدى إلى نهضة شاملة.

فقد انتشرت الفلسفة اليونانية أنتشاراً واسعاً وراح العرب يتدارسونها ويتبعون فى ذلك مذهب المزج والتخير وقد طغت النزعة الفيثاغورية والنزعة الأفلاطونية المصبوغتين بصبغة التصوف فراح معظم الفرق الاسلامية من دينية وسياسية يدرسون هذه الفلسفة ويبحثون فيما عما يدعم نظرياتهم، وقد أدعى الناقمون على السلطة وعلى الاسلام السنى أن الشريعة قد دنست

(١) جوستاف جرونباوم: حضارة الإسلام: ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ص ٤٨ سنه ١٩٥٦ مكتبة نهضة مصر.

(٢) أحمد أمين - ظهر الإسلام جـ ٢ ص ٢٥٩.

بالجهالات وان تطهيرها لا يتم الا بالفلسفة»[١].

وهكذا تأثر الفكر الدينى بالعلوم اليونانية خاصة فلسفة أرسطو أو الأرسطية المصبوغة بالصبغة الأفلاطونية المحدثة والمتأثرة بالشروح والتعليقات الصادرة من مدرسة الأسكندرانين.

مما أدى إلى ضعف العقيدة الدينية بطغيان النزعات والفلسفات الاجنبية وانتشار الالحاد والزندقة.

ولقد نتتج عن ذلك كله اتجاهات سعت إلى التوفيق بين هذا الرأى وذاك وحاولت هذه الاتجاهات الأخذ من كل ثقافة بطرف وحاولوا قدر استطاعتهم التوفيق بينه وبين الدين الإسلامى السائد فى مجتمعهم والذى يؤمنون به فأخرجوا مزيجاً إن عبر عن شئ فإنما يعبر عن أحد الاتجاهات الثقافية التى وجدت فى القرن الرابع الهجرى ألا وهو الاتجاه التوفيقى ذلك الاتجاه الذى يعمد إلى محاولة التوفيق بين الدين الاسلامى والفلسفة اليونانية الوافدة على الخصوص. ولا شك أن هذا الطابع هو الغالب على أخوان الصفا. فالمتطلع على رسائل اخوان الصفا التى تحوى علومهم والتى هى علوم الأوائل ممتزجة بكافة المذاهب والديانات فى محاولة لتوفيقها مع الدين الإسلامى بغية تطهيرها مما علق به من ضلالات وجهالات[٢].

وبناء على ما سبق يمكن القول بأن الرسائل التى بين ايدينا وتنسب إلى إخوان الصفا وخلان الوفاء تعود إلى القرن الرابع الهجرى وهى من انتاج جماعة من الفلاسفة والعلماء جمعت بين الدين والفلسفة فجاءت صورة لما

(١) حنا الفاخورى عند تاريخ الفلسفة العربية ص ٢٢٤.
(٢) نادية عزت فلسفة التربية عن اخوان الصفا ص ١٠٦.

وصل إليه الأمر فى عصرهم من رقى فكرى ناتج عن حركة داخلية أصيلة ومؤثرات خارجية منمية لها. وكان اتجاههم إلى التكتم والمداراه رد فعل لما ساد المجتمع من فساد سياسى وصراع مذهبى(١).

ورسائل الاخوان تمثل بحق اتصال الفكر الاسلامى وتأثره بالتيارات الاجنبية، وبما شاع فيها من اتجاهات باطنية. مبينه فى جلاء أن الشريعة الإسلامية والفلسفة اليونانية لا يتعارضان فى شئ.

وسوف نرى فى الجزء القادم إلى أى حد كان تأثر أخوان الصفا بالفلسفة اليونانية سواء فى مذهبهم أم فى عرضهم لقضايا الانسان ومشكلات الاخلاق.

مذهبهم:

كما بينت سابقاً لم يستطيع أخوان الصفا تجاهل الأراء والفلسفات الوافدة إليهم بل اتجهوا إليها محاولين التوفيق بينهما وبين الدين الاسلامى ففلسفة الاخوان تعد أقتباساً من كل المذاهب حسبما يوردواهم أنفسهم مراراً فى رسائلهم.

وهى قائمة على التوفيق، فقد جمعوا فيها بين ما جاءت به الأديان وما جاء على لسان الحكماء وما أنتجته قرائح الفلاسفة والعلماء. اى يدينون بالوحدة الفلسفية. ويكونونا من ذلك مذهباً خاصاً بهم. فمذهبهم يستغرق المذاهب كلها وهم أنفسهم يعلنون هذا حيث يقولون:

«أعلم أيها الأخ أنا لا نعادى علماً من العلوم ولا نتعصب على مذهب من المذاهب ولا نهجر كتاباً من كتب الحكماء والفلاسفة؛ لأن رأيهم يستغرق

(١) المرجع السابق ص ١٠٧.

المذاهب كلها ويوحد العلوم جميعاً»[١].

وقد زعموا أنهم بمذهبهم هذا قد قربوا الطريق إلى الفوز برضوان الله حيث يرون «إن الشريعة قد دنست بالجهالات، وأختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية، والمصلحة الاجتهادية، وزعموا انه متى انتظمت الفلسفية اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال»[٢].

وقد اعتبر الاخوان الفلسفة فوق الشريعة وان الفضائل الفلسفية فوق الفضائل الشرعية وان الخلود السعيد للفلاسفة، والسعادة العقلية وهكذا يرمى الأخوان إلى تطهير الشريعة بالفلسفة أى عرض الشريعة على ميزان الفلسفة والوصول بذلك إلى انقلاب فكرى»[٣].

وقد يكون اخوان الصفا اعتقدوا حقاً ان الشريعة قد دنست بأقوال وتأويلات لا تتصل بهما وأن الحكمة «الفلسفة» وحدها هى علاج هذا الطارئ المشين. فدرسوا الفلسفة بناء على هذا الاعتقاد ومزجوها بالدين لتحقيق هذه الغاية، حتى يصلوا من وراء ذلك إلى تطهير أنفسهم والصعود إلى ملكوت السموات[٤].

فهم يدعون بذلك إلى فهم خاص للدين يقوم على اساس الفلسفة فدينهم

---

(١) الرسائل جـ ٤ ص ١٠٥/ ٢١٦.
(٢) المرجع السابق.
(٣) حنا الفاخورى. ص ٢٢٨.
(٤) د/ محمد البهى الجانب الالهى من التفكير الإسلامى ص ٢٢٠ سنه ١٩٨٢ مكتبة وهبه.

فلسفى عقلى والهدف من ذلك كما يزعمون هو تطهير الشريعة ولكنه تطهير بالفلسفة اليونانية.

ومما لا شك فيه ان مسألة التوفيق بين الدين والفلسفة أو الحكمة والشريعة ليست ابداع فلسفياً للأخوان فإن الكندى والفاربى وكثيرين قد نقلوا أيضاً من اليونانية بل وفقوا بين الدين والفلسفة.

فما هى القيمة العلمية لهذا المذهب وهل نجح حقاً الإخوان فيما ذهبوا إليه. كما نجح الكندى والفارانى.

يرى الدكتور البهى:

أنه ربما لا تكون هناك قيمة علمية فى دراسة مذهب أخوان الصفا، لانهم لم يأتوا بجديد فى الفكرة كما لم ينجحوا فى التوفيق بين المذاهب(١).

كذلك ذهب السجستانى إلى ان أخوان الصفا «قد ظنوا ما لا يكون ولا يمكن ولا يستطاع ظنوا أنه يمكنهم أن يدرسوا الفلسفة فى الشريعة وأن يضعوا الشريعة فى الفلسفة، وهذا حرام دونه حرام، قيل له ولم؟ قال: أن الشريعة مأخوذة عن الله عز وجل بواسطة السفير بينه وبين خلقه عن طريق الوحى، ثم يذهب السجستانى إلى القول بأنه لو كان الجمع بين هذين الطرفين ممكنا لكان الله قد بنه عليه ولكنه لم يفعل(٢).

هكذا يعتقد السجستانى ان طبيعة الفلسفة تختلف عن طبيعة الدين واختلاف غايتها عن غايته ووسيلتها عن وسيلته لذلك لا يمكن الجمع بينهما.

---

(١) د/ محمد البهى. الجانب الالهى من التفكير الفلسفى ص ٢٢٠.

(٢) التوحيدى. الامتاع والمؤانسة ص ٧/٦.

﴿٤١٦﴾

كذلك ذهب بعض الدارسين إلى القول بأن رسائل أخوان الصفا هى «أمشاج الغنوصية الشرقية والغربية البعيدة كل البعد عن الروح الاسلامى مهما حاولت التوفيق[١].

نحن مع هذا القول بأن أخوان الصفا لم ينجحوا فى مزج الدين بالفلسفة أو التوفيق بينهما.

إلا انه لا يصح اغماط هذه الجماعة حقها فى الفضل. على كثرة اطلاعها واستيعابها للمذاهب الفلسفية والاراء الدينية. ونشر ذلك كله بأسلوب مبسط وواضح مفهوم.

كما اننا نجد من بين الرسائل ما يبرر لأخوان الصفا موقفهم هذا. حيث انهم يرون أن أصل الدين واحد وما دام ذلك فلابد أن تتلاقى، فالاختلاف بين الاراء من وجهه نظرهم فى المذاهب والديانات خلافاً ظاهرياً واما الباطن فواحد يعرفه الحكماء والراسخون فى العلم.

كذلك يرى الأخوان أن النظرة الفلسفية تتفق مع الدين من حيث الشمول والكلية.

وان اهداف الفلاسفة هى بعينها اهداف الابنياء لاجتماع الطرفين على صحة الحقيقة فقد اتفقا مثلاً على ان الله واحد[٢].

أما قولهم الفلسفه فوق الشريعة فهذا القول من ناحية نطرتهم إلى

---

(١) عبد القادر محمود – الفلسفة الصوفية فى الاسلام ص ٣٠٢ دار الفكر العربى سنه ١٩٦٧.

(٢) انظر الرسائل جـ ٤/١٥٠، ٢٠٥، جـ ١/١٥١.

بعض رجال الدين ولكن ليس نظرتهم للدين نفسه. فلم يكن هناك خلاف بين الحكمه والشريعة عند الإخوان حيث أنهم يرفضون تعليم الفلسفة لمن لم يتعلم علوم الدين كى لا يزيغ عقله ويضل فهمه.

كما بينا وذلك يوافق ما جاء عن ابى حيان التوحيدى عند الحديث عنهم.

«وضعوا بينهم مذهباً، زعموا انهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله»(١).

وقد تحدث الإخوان عن سبب تأليفهم للرسائل بكلام فيه عموم فقالوا:

«وأما كيفيه الخروج من الجهالات المتراكمه فقد بيناها فى إحدى وخمسين رسالة عملناها فى فنون العلم وغرائب الحكم»(٢).

هكذا أراد أخوان الصفا تثقيف الناس وأزالة جهلهم ولكنه تثقيف من نوع خاص، حسب مذهبهم فقد كانوا يريدون ممن ينضمون إليهم ان يكونوا ملمين بالرسائل(٣).

وقد نجح الإخوان من حيث ان رسائلهم قد جاءت مرتبطة بفكرهم متسقاً مع طريقتهم فى المزج والتوفيق بين الدين وبين العلوم الوافدة. كما انها تصور الحياة الفكرية فى القرن الرابع الهجرى وخصوصاً من الجانب الفكرى.

«حيث كان الوقت مناسباً لظهور دائرة معارف تجمع بين الافكار

---

(١) التوحيدى – المقابسات – ص ٤٦.

(٢) الرسائل – جـ ١ ص ٢٢٨.

(٣) عمر فروخ "إخوان الصفا" – الطبعة الثانية – دار الكاب العربى بيروت – ص ٢١.

الشيعية والاعتزالية والفلسفية وتؤلف منها مذهباً يسهل تناوله على العامة»[١].

خلاصة ما سبق ان جماعة اخوان الصفا جماعة من الفلاسفة أعجبتهم العلوم الوافدة، ورأوا ما آل إليه الأمر فى مجتمعهم من فساد. وما وصل إليه حال العلماء والفقهاء من اختلاف وفرقه وما كان من العامه من شغب وتعصب لا سند له. وما كان من دعاوى دينيه منحرفة وكاذبة، ثم انعكاس كل هذا على المجتمع وأخلاق من فيه وما أدى إليه من فساد الضمائر والابتعاد عن الدين، فرأوا أن الوسيلة إلى تطهير الدين مما علق به إنما يكون بمخرجه مع الفلسفة الوافدة التى اعجبتهم، ودفعهم ما وجد من تعصب بين الأجناس المختلفة المكونه للأمة الإسلامية إلى محاولة تكوين جماعة مؤتلفه تذوب فيها كافة الخلافات المذهبية والاختلافات الجنسية، جماعة يوحد العلم بين أفرادها، ولما كان العلم الذى يشتغلون به ويعلمونه لأفراد الجماعة هو العلم الوافد إلى الأمة الإسلامية والمعروف بعلوم الأوائل. والذى يقابل بالشك والاتهام من فقهاء الأمة وعامتها فاختاروا الاستتار وكتمان الأمر طريقة للحفاظ على أنفسهم من شر هذا السخط شأنهم فى هذا شأن غيرهم ممن أتجهوا إلى التقية والاستتار فى الأمة الاسلامية»[٢].

تلك فكرة سريعة وخاطفه عن الإخوان لابد من الإشارة إليها لما لها من أهمية قبل الحديث عن علاقة الإنسان بالفلك عند إخوان الصفا. وهذا ما سأحاول ابينه من خلال بيان رآى الإخوان فى الكواكب والنجوم وأثرها فى الانسان.

---

(١) دى بور - تاريخ الفلسفة فى الاسلام ص ١٠١.

(٢) نادية جمال الدين: فلسفة التربية عند اخوان الصفا - ص ١١٩.

﴿٤١٩﴾

«تأثير الكواكب والنجوم فى الانسان»

أولاً: تأثير الكواكب والنجوم: بكينونه الانسان

يزعم إخوان الصفا ان النجوم والكواكب شديدة التأثير فى كل ما دون القمر. فهم يقولون

«إعلم يأخى بان فنون تأثيرات الكواكب فى الاجسام كثيرة لا يحصى عددها إلا الله»(١).

ويرجع إعتقادهم هذا إلى انهم يرون أن الإفلاك انما هى ملائكة الرحمن وإن عليها تدبير الأمور تحت فلك القمر:

«اعلم يأخى، أيدك الله وإيانا بروح منه، أن كواكب الفلك هم ملائكة الله وملوك سمواته، خلقهم الله تعالى لعمارة عالمه وتدبير خلائقه، وهم خلفاء الله فى أفلاكة كما ان ملوك الأرض هم خلفاء الله فى أرضه، خلقهم» وملكهم بلاده، وولاهم على عباده، ليعمروا بلاده ويسوسوا عبادة، ويحفظوا شرائع انبيائه بانفاذ احكامهم على عباده، وحفظ نظامهم على أحسن حالات ما يتأتى منهم، وأتم غايات ما يمكنهم من البلوغ إليها، وأفضل نهايات ما يصلون إليها أما فى الدنيا وإما فى الآخرة»(٢).

فالكواكب فى نظر الإخوان كائنات حية وهم ملائكة الله ووظيفتهم تدبير كل شئ تحت فلك القمر – وكل شئ حادثاً بتأثير منه خيراً كان أم شراً.

---

(١) الرسائل المجلد الثانى ص ٤٣٣.

(٢) الرسائل المجلد الأول سنه ١٤٥.

﴿٤٢٠﴾

وهذا التأثير من وجهة نظر الإخوان لا يحدث للإنسان عن طريق الاكتساب وانما هو يحدث عند سقوط النطفة فى الرحم إلى يوم الممات.

فحينما تستقر النطفة فى الرحم ترتبط بها فى الوقت والساعة قوة من قوى النفس النباتية التى تسرى فى الاجسام النامية.

فهم يقولون:

«اعلم يا أخى، أيدك الله وإيانا بروح منه بأن أفعال الكواكب وتأثيرات قوى روحانياتها فى الأربعة الأشهر الأول تكون مصروفة إلى تأسيس بنية الجسد، وتكوين أعضائه المختلفة، وسريان قوى النفس النباتية»(١).

وقد تتبع الأخوان التأثيرات الفلكية التى تلاحق الجنين كما يقولون من وقت لآخر حتى تكتمل بنيته ذلك أنه لا يقبل الفيض الفلكى دفعه واحدة لذا فهو يبتدى من انقص الأطوار حتى أتمها.

«اعلم يا أخى بأن الكائنات التى تحت فلك القمر تبتدى من أنقص الحالات وأدونها مترقية إلى أتمها وأفضلها، ويكون ذلك فى مر الزمان والأوقات لأن طبيعتها لا تقبل فيض أشخاص فلكية دفعة واحدة، ولكن شيئاً بعد شئ على التدريج»(٢).

ولذا كانت مدة الحمل تسعة أشهر كى تتم البنيه وتستكمل الصورة وتفيض عليها قوى الاشخاص الفلكية. ولو امكن تتمها وتكملها فى يوم واحد لما تركت هناك يومين.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق.

﴿٤٢١﴾

«أن مكث الجنين فى الرحم تسعة أشهر إنما هو لكيما تتم البنية، وتستكمل الصورة، ويفيض عليها قوى الأشخاص الفلكية ولو أمكن تتميمها وتكميلها فى يوم واحد، لما تركت هناك يومين، ولو أمكن فى شهرين»(١).

ويتحدثون عن تأثير الفلك فى تكوين صورة الجنين من أول مسقط النطفه حتى يستوفى الانسان عمره الطبيعى فى الدنيا وهو مائه وعشرون سنه قائلين:

«ان نطفه الانسان إذا سقطت فى الرحم فإن مكثها الطبيعى، إلى أن تقبل صورة الإنسانية، أربعة أشهر بمقدار ما تسير الشمس أربعة أبراج مائة وعشرين درجة، وتستوفى بمسيرها طبائع البروج المثلثات مرة واحدة فعند ذلك يبقى الجنين إلى يوم الولادة أربعة أشهر آخر، وهو مقدار ما تسير الشمس أربعة أبراج مائة وعشرين درجة، وتستوفى بمسيرها طبائع البروج المثلثات مرة أخرى. وبذلك يبقى لهما أن تعود إلى الدرجة التى كانت فيها يوم مسقط النطفة مائة وعشرين درجة فيستوفى المولود العمر الطبيعى فى الدنيا، مائة وعشرون سنه لكل درجة»(٢).

وقد ذكروا تأثيرات الافلاك المستمر فى الجنين شهراً بعد شهر قائلين.

«بأن تدبير النطفة إنما صار لزجل من أجل أنه أعلى الكواكب السيارة فلكاً مما يلى فلك الكواكب إلى أن يدخل الشهر الثانى ويصير التدبير للمشترى الذى فلكه يتلو ملك زحل ثم يدخل الشهر الثالث ويصير التدبير للمريخ الذى يلى المشترى فى الفلك... فلا تزال تتقلب حالاً بعد حال من النضج

(١) نفسه.
(٢) المرجع السابق.

﴿٤٢٢﴾

والاستحكام بمشاركة قوى روحانيات سائر الكواكب للمريخ إلى تمام ثلاثة أشهر ثم يدخل الشهر الرابع، ويصير التدبير للشمس رئيسة الكواكب وهى المستولية على الكائنات التى دون فلك القمر وخاصة على مواليد الحيوانات ذوى الرحم وأشد اختصاصاً بمواليد الإنسى، وذلك أن جرمها فى العالم بمنزلة جرم القلب فى البدن»[1].

وقد ذكروا تأثيرات متعددة للأفلاك نكتفى هنا بما ذكرناه سابقاً كنموذج عن تدبير الأفلاك وتأثيرها فى تركيب بنية الجنين واعتدال المزاج «اعلم يا أخى أن بنية الجسد وتركيب أعضائه يتم فى هذه الأربعة الأشهر».

وكعادة الاخوان فى ارجاع كل شئ إلى تأثيرات الكواكب فهم يرون أن من يولد ناقص الجسد يعيش شقياً كما ان الجسد التام يرجع أيضاً إلى الشهور التى يولد فيها الانسان:

«اعلم يا أخى بأن زحل دليل الشهر الأول من مسقط النطفه، فإذا كان سليم المناحس والاحوال المذمومة، سلمت تلك النطفه من الأفات العارضه باذن الله تعالى. فإذا كان بخلاف ذلك كان بالعكس مثال ذلك.

أنه متى كان زحل صاعداً فى فلكه، مستقيماً فى سيره فى حد نفسه من البرج والدرجة فإن تلك النطفة تكون مرتفعة إلى أعلى بطنها خفيف عليها حملهما، سليمة من الأوجاع والأعلال. وإن كان فى حد المشترى كانت فرحانة بحملها حسنه الظن بربها، مستقيمة السلامة والتمام وإن كان فى حد المريخ تكون نشيطة فى اعمالها مستعجلة فى أمورها. وإن كان فى حد

(١) المرجع السابق.

﴿٤٢٣﴾

الزهرة تكون المرأة مسرورة بحملها مستبشرة بولادتها. وإن كان فى حد عطارد فإنها تكون عارفة بوقت حملها حاسبه لأيام شهورها. وان كان زحل هابطاً فى فلكه، راجعاً فى مسيرة مذموماً فى أحواله، كان الأمر بخلاف ما وصفنا[1].

وايضاً قولهم:

«أن من يولد غير تام البنية ولا كامل الصورة، لا ينتفع فى هذه الدنيا ونعيمها، ولا يتلذذ ولا يتمتع بلذاتها على التمام والكمال، ولم يزل شقياً منغمص العيش، مبتلى كالزمنى والناقص الخلقة، الغير تامى الصورة»[2].

ويربطون بين طول عمرة وحظة فى الحياة وبين تأثيرات الكواكب التى تسيطر على الكائنات التى تحت فلك القمر والمواليد من البشر على وجه الخصوص.

وليس هذا فحسب بل يرتبط عمر كل إنسان بأسباب فلكية أيضاً، ذلك أن لكل مولود من الحيوان أبوين من الفلك، كما أن له والدين فى الأرض أحدهما دليل عمره، يسمى كدخداى أى رب البيت، والآخر يسمى هيلاج أى ربه البيت، فإن كانا مسعودين عند ولادته عاش المولود بخير عمراً طويلاً، وإن كان منحوسين فبالعكس من ذلك. وإن كان الكدخداى مسعوداً والهيلاخ منحوساً، كان المولود حسن الحال غنياً قصير العمر. فأما علة قصر العمر عن المقدار الطبيعى، فهو أن يكون عطية كدخداى يسيره، فإذا فنيت وبلغت المسير إلى مركز النحوس وساعاتها مات المولود فجأة أو بأعلال وأمراض

(١) الرسائل المجلد، ص ٤٣٤.

(٢) المرجع السابق ص ٢٤٢.

﴿٤٢٤﴾

وأسباب شتى، لا يعلم ذلك إلا الله عز وجل[١].

وإذا كانت معظم أحوال الإنسان متوسطة فإن عمره الطبيعى متوسطة ايضاً، وهو مائة وعشرين سنه بين الزيادة والنقصان. والإنسان مثل كل كائن حى لابد من أستغراق عمره دورة واحدة من أدوار الأشخاص الفلكية العليا[٢].

هكذا تتبعاً التأثيرات الفلكية فى الانسان عند اخوان الصفا منذ كونه جنياً حتى اكتملت بيئة.

ثانياً: تأثير الكواكب والنجوم فى الأخلاق:

بعد ان بينا تأثير الكواكب والنجوم بالانسان فى الرحم من يوم مسقط النطفة إلى يوم ولادة الجسد وبينا كيف يضاف إلى خلقة الجنين قوى روحانيات الكواكب، وكيف تأثر الكواكب فى الطبيعة تسعة أشهر شهراً بعد شهر، الذى هو المكث الطبيعى إلى يوم ولادة الطفل، واستئناف الإنسان العمر فى الحياة الدنيا مائة وعشرين سنه، الذى هو العمر الطبيعى فى رسالة مسقط النطفة نريد أن نبين هنا مدى تأثر الأخلاق بتلك النجوم والكواكب وربطها بأمزجه الناس وميولهم.

أولاً: أقسام الاخلاق عند الاخوان:

قسم إخوان الصفا الأخلاق الإنسانية إلى قسمين:

(١) أخلاق فطرية مركوزه فى الجبله. (٢) اخلاق مكتسبة.

---

(١) الرسائل جـ ٢/٢٩٠.

(٢) المرجع السابق ص ٢٩٣/ ٢٩٤.

﴿٤٢٥﴾

الأخلاق الفطرية:

هى التى توجد فى جبله الأنسان ويقصدون بها الأخلاق التى تضاف إلى نفس الجنين منذ يوم وجوده فى رحم أمه إلى يوم ولادته بتأثير قوى روحانيات الكواكب[١] ويعرفونها بأنها:

تهيوء ما فى كل عضو من اعضاء الجسد يسهل به على النفس إظهار الأفعال أو عمل من الاعمال أو صناعة من الصنائع أو تعلم علم من العلوم أو أدب من الاداب أو سياسة من غير فكر ولا روية.

معنى هذا ان الأخلاق المركوزة موجودة فى النفس بالقوة، وتظهر حين توجد الدواعى المسببة بظهورها فى الوقت المناسب، والمثال على ذلك عندهم أن من كانت الشجاعة خلقاً فطرياً «أو مركوزاً فيه فإنه يسهل عليه الإقدام على الأمور الصعبة أو المهلكة دون تفكير ولا روية أما من كان مطبوعاً على الضد أى على الجبن فانه يحتاج إلى جهد شديد وتفكير مستمر وروية من أجل إظهار الشجاعة إذ أنه غير مطبوع عليها[٢].

والله سبحانه وتعالى خلق النفوس وأمدها بأسباب تحفظ عليها البقاء ومنها الأخلاق الفطرية. فحين ركز سبحانه الشهوات فى جبله الانسان والأخلاق الناشئة عنها فإنما كان ذلك من أجل بقاء النفوس على أفضل حالاتها. ويسهل على الإنسان إظهار جميع الصنائع والاعمال إذ أن إظهار كل هذه الأمور بخلق وأداة ومزاج واحد متعذر على الإنسان ولما كانت الأخلاق

(١) الرسائل جـ ١ ص ٢٣٤/ ٢٣٥.
(٢) الرسائل جـ ١ ص ٢٩٧، ٣٠٥.

﴿٤٢٦﴾

المركوزة قد طبعت فى الجسم من أجل أن يستطيع التكيف مع الظروف المحيطه به. وكان أستخدامها يؤدى إلى طلب منفعة الجسد أو دفع المضره عنه، فقد رأى الأخوان أن هذه الاخلاق المركوزه هى أخلاق بنى الدنيا التى ينبغى أن يعمل الانسان على قمعها وتهذيبها.

فهم يقولون فى ذلك

اعلم يا أخى، أيدك الله وإيمانا بروح منه، بأن أخلاق بنى الدنيا هى التى ركزتها الطبيعة فى الجبله من غير كسب منهم ولا أختيار ولا فكرة ولا روية ولا اجتهاد ولا كلفه، فهم يسعون فيها ويعملون عليها مثل البهائم فى طلب منافع الأجساد ودفع المضرة عنها كما قال الله تعالى.

«يأكلون كما تأكل الأنعام، والنار مثوى لهم» فأخلاق بنى الدنيا وسجاياهم انما جعلت طبيعة مركوزة فى الجبلة. لأنهم وردوا إلى الدنيا جاهلين غير مستعدين لها، فأزيحت عليهم فى ذلك. إذ هى الأصل والقانون فى جميع القوى والاخلاق والخصال والافعال والحركات والحس والشعور بها ومن أجلها»(١).

حيث يذهب الاخوان إلى القول بأن الاخلاق تعم أنواع النفوس الإنسانية ولا تختص بواحدة منها على حده. فإن من الاخلاق ما ينسب إلى النفس النباتية الشهوانية ويكون عنها ضروب اللذات الحسية وما يتصل بها، ومن القوى والخصال المركوزة ايضاً ما ينسب إلى النفس الحيوانية الغضبية حيث يتصل بها الشهوة للرياسة وحسنت السيطرة وما يتصل بهذا من أفعال.

(١) المرجع السابق.

وثالثة القوى هى قوى النفس العاقلة الناطقة، وتختص بشهوة العلوم والمعارف والنظر فى حقائق الامور» وهناك شهوتان يردون إليها الأخلاق والسلوك بصفة عامة إذا هما اصل فى جميع الاخلاق إذ تفرع عنهما سائر الأخلاق، ذلك أن الشهوات المركوزة فى الجبلة ترد إلى هذين الاصلين إذا هما فى نظرهم أصول وقوانين لجميع الاخلاق أو بمعنى أوضح لكل الوان السلوك البشرى وهما شهوة البقاء وكراهية الفناء إذ يقولون:

"أعلم يا أخى بأنك ان أنعمت النظر وجودت البحث عن مبادئ الكائنات وعلة الموجودات علمت وتيقنت هاتين الحالتين، أعنى شهوة البقاء وكراهية الفناء، أصل وقانون لجميع شهوات النفوس المركوزة فى جلبتها، وان تلك الشهوات المركوزة فى جبلتها أصول وقوانين لجميع أخلاقها وسجاياها وتلك أصول وقوانين لجميع أفعالها وصنائعها ومعارفها ومتصرفاتها»[1].

ويرجع أخوان السبب فى كونهما مركزتين فى جبلة النفوس انهما صفتان لله عز وجل والمخلوقات دائما تحاول التشبه بالآله.

حيث يقولون:

«وإنما صارت هاتان الحالتان مركزتين فى جبلة كل الموجودات وجميع الكائنات، من أجل أن البارى حل ثناؤه، لما كان هو علة الموجودات وسبب الكائنات ومبدعها ومخترعها.... وكان حل ثناؤه، دائم البقاء لا يعرض له شئ من الفناء، صار من أجل هذا فى جبلة الموجودات محبه البقاء وشهوته وكراهية الفناء وبغضه»[2].

---

(١) الرسائل جـ ١ ص

(٢) الرسائل جـ ١ ص

﴿٤٢٨﴾

ويرى الاخوان ان هذه الاخلاق الفطرية المركوزة فى جبلة الانسان وتنوعها قد يكون مانعاً له فى الترقى إلى درجة الملائكة وعائقاً له فى تلقيه لأوامر الدين ونواهية وفى التخلق بأخلاق الانبياء. لان الدين قد يكون فى بعض الاحيان مخالفاً لما ركز فى جبله الانسان وشهواته. ولكن ليس معنى ذلك ان يستسلم لها الانسان بل عليه ان يعمل على دفعها عن نفسه.

فهو يقولون:

«أعلم يا أخى، أيدك الله وإيانا بروح منه، بانك إذا أنعمت النظر بعقلك وفكرت برونيك، وتأملت أوامر الناموس ونواهيه وإحكامه... عرفت وتبينت أن اكثر أوامره هى بخلاف ما فى طباع الناس. ونواهيه عما هو فى الجبلة مركوز من تركب الشهوات وذلك أنه أمر بالصيام وترك الأكل والشرب عند شدة الجوع والعطش وبالطهارة عند البرد،... وبالشجاعة عند المخاوف، وبالعفو عند المقدرة وبالسخاء عند الفقر وبالزهد فى الدنيا عند التمكن منها ومشاكل هذه الأفعال والاعمال والأخلاق والسجايا التى فى الجبلة خلافها، وهى فى الطباع مركوز غيرها»(١).

«فإن كنت تريد أن تكون من أولياء الله وأهل جنته ومن حزب ملائكته الكرام البررة، فاقتد بهم وتخلق بأخلاقهم باجتهاد منك وروية، وعناية شديدة وكثرة استعمال لها. وطول درية بها، لتصير لك عادة وطبيعة وجبلة مركوزة، ودع اخلاق إخوان الشياطين وجنود ابليس أجمعين، واعلم يقيناً بأن ليس يصحب الإنسان بعد الموت..... إلا ما كسبت يداه من هذه الأخلاق

(١) المرجع السابق ص ٣٣٣.

والأعمال المشاكله لها.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«انما هى أعمالكم ترد اليكم» وقال جل ثناؤه: «ووجدوا ما عملوا حاضراً»[١].

فالانسان فى نظرهم مبعوث فى هذه الدنيا كى يسعى ويصل إلى مرتبة الملائكة التى تتصل بأخر مرتبة الإنسانية إذ المقصود من الوجود فى الدنيا هو الانتقال من الحال الأدون إلى الاتم الأشرف»[٢].

ثانياً: الأخلاق المكتسبة:

وهى ما ينضاف إلى تلك الطباع المركوزة فى تصاريف أيام الحياة الدنيا إلى يوم الممات[٣].

وهذه الاخلاق يكتسبها الإنسان عندهم باجتهاده واتباعه أوامر الناموس وتأديبه وسننه وبالانصياع لما يوجبه العقل والفكر وهذا كله مخالف لما هو مركوز فى الجبله – كما بينت سابقاً ومن هذا أيضاً كانت الأخلاق المكتسبة عندهم هى ما يثاب عليها المرء أو يعاقب وبالتالى اعتبرت أخلاق أبناء الأخرة الذين استطاعوا إزاحة أمراض نفوسهم[٤].

ويرجعون السبب فى كون الأخلاق المكتسبة هى أخلاق أبناء الأخرة بقولهم قد صارت «بأن أبناء الأخرة أخلاقهم مكتسبة معتادة، لأنهم أزيحت

(١) نفسه ص ٣٣٤.
(٢) المرجع السابق.
(٣) الرسائل جـ ١ ص ٢٩٦.
(٤) المرجع السابق ص ٣٣٢.

﴿٤٣٠﴾

عللهم قبل ورودهم إلى الأخرة، بما أعلموا بها وأخبروا عنها ويشيروا لها وأنذروا منها وجدوا فى طلبها، وأوضح لهم طريقها وأزيحت عللهم فيما يحتاجون إليه من البيان والاستطاعة والقدرة والهداية والأمر والنهى والوعد الوعيد والترهيب ومشاكل ذلك مما هو بين واضح فى أحكام النواميس وحدودها وفى موجبات العقول وقضاياها، لئلا يكون للناس على الله حجه بعد الرسل والعقول المركوزه[1].

وبناء عليه يرى الأخوان أن الأخلاق المحمودة انما تأتى عن طريق الاكتساب ويدللون على ذلك بقولهم:

إذا تأملت وبحثت ودققت النظر، فوجدت جميع الأعمال الزكية والأفعال الحسنة التى هى منسوبة إلى النفس الناطقة إنما هى لها بحسب آرائها الصحيحة واعتقاداتها الجميلة. ثم وجدت تلك الأراء والاعتقادات إنما هى لها بحسب أخلاقها المحمودة المكتسبة بالأجتهاد والروية، والعادات الجارية العادلة. وعرفت بهذا الاعتبار أن أصل جميع الخيرات وصلاح الإنسان كلها هى الأخلاق المحمودة المكتسبة بالاجتهاد والروية[2].

وليس معنى ذلك ان كل الاخلاق المكتسبة محمودة عند الإخوان بل إن منها ما هى محمودة منسوبة إلى الملائكة كما بينا ومنها ما هى مذمومة منسوبة للشيطان وقد وضعوا لها أصول ثلاثة أولهما: كبر إبليس، وحرص آدم، وحسد قابيل[3].

---

(١) نفس المرجع ص ٣٣٤/ ٣٣٥.

(٢) الرسالة جـ ١ ص ٣٦٦.

(٣) نفس المرجع السابق ص ٣٥٠ نفسه.

﴿٤٣١﴾

وهذه الخصال عندهم هى أمهات المعاصى وأصول الشرور ففساد أمور الأنسان كلها هى الأخلاق المذمومة المكتسبة بالعادات الجارية منذ الصبا من غير بصيرة».

ولكن يعودون فيتلمسون لهذه الأخلاق الشريرة المكتسبة ركائز فى الجبلة وهذه الركائز ليست شريرة فى ذاتها وانما هى مركوزة فى الجبلة أصلا لصالح الانسان. فيقولون:

فإن قيل: ما الحكمة والفائدة فى كون هذه الخصال الثلاث موجودة فى الخليقة مركوزة فى الجبله؟

فنقول: أما التكبر فهو من كبر النفس، وكبر النفس هو من علو همتها، وعلو الهمة جعل فى جبلة النفس لطلب الرياسة، وذلك ان الناس محتاجون فى تصاريف أمورهم إلى رئيس يسو سهم على شرائط معلومة(١).

أما الحرص فقد جعل فى الجبلة فهو من أجل أن الإنسان لما خلق محتاجاً إلى مواد لبقاء هيكله ودوام شخصه مدة ما، وإبقاء صورته فى نسله زماناً ما، جعل فى طبعه وجبلته الرغبة فيها والحرص فى طلبها. وأما كون الحسد مركوز فى الجبلة فهو من أجل التنافس فى الرغائب من نعم الله، وذلك إن نعم البارى تعالى على خلقه لا يحصى عددها إلا هو. ولم يمكن ان يجمع عددها كلها على شخصى واحد ففرقت فى الاشخاص بالقسط «العدل» كما شاء ربهم(٢).

(١) الرسائل جـ ١ ص ٣٥٤.
(٢) نفسه ص ٣٥٥.

﴿٤٣٢﴾

فإذا ما سلك الانسان وفقاً لما من أجله ركزت تلك الصفات فيه وأجتهد عند ذلك فى اصلاح نفسه واصلاح أخلاقه وصحة اعتقاده وحقيقة معلوماته، فيجتهد عند ذلك فى إصلاح ما هو فاسد منها ويتجنب ما هو مزموم بحسب ما توجبه قضية عقله. كانت اخلاقه مرضية محمودة ويصعد إلى ملكوت السموات وسعة الافلاك والدخول فى زمرة الملائكة.

أما إذا سيطرت عليه هذه الصفات وملكت عليه أمره وأستعبدته وصارت إلى غير ما جعلت له كانت من فعل الشيطان[1].

تبين لنا مما سبق أن الاخلاق المكتسبة عند الأخوان منها ما هو محمود ومنها ما هو مزموم، والمحمود هو أخلاق النفس العاقلة. وانها أصل جميع الخيرات وأما المزموم فهو غالباً المنسوب إلى النفس الغضبية وانها السبب فى جميع الشرور وسبب فساد أمور الإنسان كلها. ولذلك لا يمكن للأنسان أن يستسلم لها بل عليه العمل من أجل تهذيب نفسه حتى تصبح أخلاقه محمودة مرضيه.

كيفية التأثير على الاخلاق:

سبق الاشارة إلى ان اخوان الصفا يرون أن كل ما يقع تحت فلك القمر أو فى عالم الكون والفساد انما يخضع لحركات النجوم وتأثير الكواكب. وبالنسبة للإنسان فإن كل أمور حياته مرتبطة بمواقع النجوم لحظة وجود الجنين فى رحم الأم وتعاقب تأثيرات الكواكب عليه شهراً فشهراً حتى يخرج إلى النور.

(١) نفسه ص ٣٣٥.

﴿٤٣٣﴾

وفى مجال الأخلاق ميلهم إلى القول بأخلاق فطرية مركوزة فى الجبلة. تطبع فى النفس اخلاقاً معينة طبقاً لتأثيرات روحانيات الكواكب تجعل لدية القابلية لاكتساب الاخلاق والانتقال بها من حال إلى حال فيمكنه تهذيبها وترقيتها من حال النقص إلى حال الكمال.

ونرى لهذا الأثر «النجوم الكواكب» تأثير واضح فى مجال الأخلاق وفى إختلاف الناس فى طباعهم وميولهم. إذ يعد هذا العامل أصل وبقية العوامل المؤثرة فى الاخلاق كالبيئة والعادة وغيرها من العوامل الأخرى متأثرة به وفروع عليه.

فالكواكب تؤثر فى تكوين الأخلاط وتناسقها أو تغلب أحدهما على الآخر. ففى رأيهم أن من يولد فى الأوقات التى تكون الأرض معرضة فيه لتأثير الكواكب النارية مثل المريخ يغلب عليه الحرارة وقوة الصفراء. والذين يولون تحت تأثير الزهرة تفرز فى ابدانهم الرطوبة والبلغم «فأختلاف أمزجه الأخلاط يؤدى إلى اختلاف أخلاق أهلها وطباعها وألوانهم ولغتهم وعاداتهم وآرائهم ومذاهبهم لا يشبه بعضا بعضاً»(١).

فهم يقولون: ان الذين يولدون بالبروج النارية فى الأوقات التى يكون المستولى عليها الكواكب النارية مثل المريخ وقلب الأسد وماشاكلها من الكواكب فإن الغالب على أمزجه أبدانهم الحرارة وقوة الصفراء والذين يولدون بالبروج المائية مثل الزهرة والشعرى اليمانية، فإن الغالب على أمزجه أبدانهم يكون الرطوبة والبلغم، وهكذا الذين يولدون بالبروج الترابية فى الأوقات التى يكون المستولى عليها زحل وما شاكله من الكواكب الثابتة، فإن الغالب على

(١) الرسائل جـ ١ ص ٣٠٣.

﴿٤٣٤﴾

أمزجه أبدانهم اليبوسة والمرة السوداء، وهكذا الذين يولدون بالبروج الهوائية في الاوقات التي يكون المستولي عليها المشترى وماشاكله من الكواكب الثابتة فان الغالب على أمزجه أبدانهم الدم والاعتدال»[1].

واعلم أن تأثيرات الكواكب في هذه الأركان ومولداتها تكون بحسب مناسباتها، ومناسباتها تكون بحسب أعظام أجرامها وابعاد مركزها وحركات أجرامها»[2].

هكذا يختلف تأثير موجبات أحكام النجوم وتأثيرها بحسب البروج التي يولد فيها الانسان فيغلب عليه مزاج هذه الكواكب. وهذا التأثير كما نرى هو تأثير فطرى مرتبط في اساسه بتكوين الانسان الجسمي بما يوحي بحتمية هذا العامل في تحديد سلوك الانسان واخلاقه وميوله لانه مركوز في الطبيعة البشرية.

وان كان هذا لا يعني «كما يرى الاخوان» خضوع الانسان خضوعاً تاماً لحتمية احكام النجوم بل عليه ان يعمل على تهذيب نفسه.

كما يقررون أثر العادات التي ينشأ عليها الانسان بين والديه واساتذته ومعلمية في تغيير مساره ايماناً منهم ان العادات الجارية إذا داوم عليها الانسان صارت جبله وطبيعة ثانية ويوضح هذا قولهم:

«اعلم بأن العادات الجارية بالمداومة فيها، تقوى الاخلاق المشاكلة لها، كما أن النظر في العلوم والمداومة على البحث عنها، والدرس لها.

---

(١) الرسائل جـ ١ ص ٣٠٤، ٣٠٥.

(٢) نفسه جـ ٢ ص ١٣٥.

والمذاكرة فيها يقوى الحذق بها والرسوخ فيها، وهكذا المداومة على استعمال الصنائع والدؤوب فيها يقوى الحذق والأستاذية فيها، وهكذا جميع الاخلاق والسجايا، ويعطون مثالاً على ذلك.

«بان كثيراً من الصبيان إذا نشأوا مع الشجعان والفرسان وأصحاب السلاح، وتربوا معهم، تطبعوا بأخلاقهم، وصاروا مثلهم، وهكذا ايضاً كثير من الصبيان إذا نشأوا مع النساء والمخانيث والمعيوبين وتربوا معهم، تطبعوا بأخلاقهم. وصاروا مثلهم، وعلى هذا القياس يجرى حكم سائر الأخلاق والسجايا التى يتطبع عليها الصبيان منذ الصغر، إما بأخلاق الأباء والأمهات أو الإخوة والأخوات والاصدقاء والمعلمين»(١).

فلم يجعلوا الانسان رهنيه هذه التأثيرات بل جعلوا له قدرة على الاجتهاد تمكنه من تعديل سلوكه وتقويم طباعه متى كان ذلك مؤدياً به إلى بلوغ الغاية التى تستهدفها الشريعة من صلاح أمر الناس، وهم فى ذلك يقولون:

«فإن اجتهد الإنسان، وفعل ما رسم فى الشريعة من لزوم أحكام ومفروضاتها، وعمل بما وصف فى الفلسفة وصبر عليه مدة ما، فعما قليل يخف عليه كل ما هو فيه»(٢).

هكذا يظهر موجبات أحكام النجوم فى تأثيراتها مثلها مثل غيرها من المؤثرات فى السلوك الانسانى والتى لا يمكن اعتبارها حتميات لا يستطيع الانسان منها فكاكاً.

---

(١) الرسائل جـ ١ ص ٣٠٧.
(٢) الرسائل جـ ٢ ص ٤٤٩.

﴿٤٣٦﴾

كذلك تلمح من خلال الرسائل ما يؤيد القول يميل الأخوان إلى القول بحرية الانسان وقدرته على مباشرة عمله ذلك:

«أن ليس أحد من المخلوقين بقادر على شئ من الأشياء ولا عمل من الأعمال إلا ما أقدره الله تعالى عليه وقواه ويسره له. وأعلم أن إقدار الله القادرين وتقويته الأقوياء، وتيسير الأمور ليس بمجبر لأحد منهم على فعل من الأفعال ولا عمل من الأعمال ولا تركه وأعلم أن كل قدرة في أحد من القادرين أو قوة في أحد من الأقوياء على فعل من الافعال وعمل من الاعمال فهو بتلك القدرة وتلك القدرة بعينها يقدر على الفعل ويقدر على ترك الفعل بعينه»[1].

ومعنى هذا ان الله وهب الإنسان قدرة على الفعل ولكنه بتلك القدرة يقدر على الفعل كما يقدر على تركه ويضربون لذلك أمثله منها القدرة التى جعلت فى لسان المتكلم الكلام فانه بتلك القدرة بعينها يقدر على السكوت. وهم هنا يتفقون مع المعتزلة فى مبدأ حرية الأرادة. ونلاحظ هنا انهم وان التقوا مع الاشاعرة فى القول بأن الله يخلق للعبد قدرة على الفعل الا انهم يختلفون عنهم فى ان هذه القدرة ملازمة للانسان وليست قاصرة على زمن الفعل، كما هو الحال عند الاشاعرة، كما انه بهذه القدرة يستطيع اتيان الفعل وتركه ايضاً مما يخرجهم من مظنه الجريمة التى علقت بالاشاعرة»[2].

وقد يكون فى هذا رد على من يرى ان اخوان الصفا يميلون إلى القول بالجبر مع عدم التصريح به حيث انهم يقولون:

---

(١) الرسائل جـ ٣/ ص ٤٩٩.

(٢) د/ احمد صبحى،فى علم الكلام. دار الكتب الجامعية ١٩٧٦ جـ ١ ص ٤٩٠ ط ٢.

﴿٤٣٧﴾

«لا تظن يا أخى انه قد يقع من أحد فعل ولا يتسير له عمل ولا ترك شيئ مما هو مندوب إليه إلا ما قد سبق له فى علم الله الذى يسمى القضاء المبرم والقدر المحتوم اللذين هما موجبات أحكام النجوم وتأثيرات الاشكال الفلكية»(١).

كذلك الأخوان يصرحون كثيراً فى رسائلهم بان الكواكب ملائكة وان لها سيطرتها على الخلائق وتأثيراتها الخفية التى تدق على الإدراك وهذا التأثير متصل دائما بأمر الله ونحن لا نستطيع ان نفهم هذا بعيداً عن مذهب الجبر فهم يقولون:

فاعلم يا أخى، أيدك الله وأيانا بروح منه، أن كواكب الفلك هم ملائكة الله وملوك سمواته، خلقهم الله تعالى لعمارة عالمه، وتدبير خلائقه»(٢).

كذلك قولهم بنظرية الفيض وربطها بالانسان يؤيد القول بالجبر وهذا ما سأبينه فى الجزء القادم من خلال الحديث عن نظرية الفيض وربطها بالاخلاق الانسانية عند الأخوان.

أستطيع ان أقول أيضاً من خلال قرآتى لرسائل أخوان الصفا اننا كثيراً ما نرى الرآى ونقيضه. حيث انهم يستعرضون فى رسائلهم وجهتى النظر السائدتين بالنسبة للموضوع الذى يحاولون مناقشته أو تحليله فيدحضوا أحدهما ويعرضوا للأخرة. أو يحاولون التوفيق بينهما حيث انهم كما بينا سابقاً نزعتهم تميل للتوفيق والانتخاب من كافة المذاهب والاراء. وفى مسألة الجبر

(١) د/ فيصل بدير عون/ علم الكلام ومدارسة، ص ٣٨١.
(٢) الرسائل حـ١ ص ١٤٥.

والاختيار بالخصوص يعقد الأخوان لها فصل خاصاً لها محاولين أن يدحضوا فكرة الجبر ويعرضوا فكرة الحرية الا انهم فى النهاية يقررون أن المسألة يصعب حسمها بل يذهبون إلى القول بانها ستظل باقية إلى يوم القيامة»[1] إلا ان هذا لم يمنعهم من ان يقرروا ان الله قد وهب الانسان قدرة على الفعل ولكنه بتلك القدرة يقدر على الفعل كما يقدر على تركه.

كذلك هناك فرق بين جبرية الطبيعة وهو ما يمثله قولهم بتأثير النجوم وهى لديهم الملائكة وهى نفسها المقادير وربطها بالقضاء وهو علم الله السابق بما يوجهه احكام النجوم.

وبين أختيارية السلوك. وهو كما نعلم فيه جانب كبير من الاختيار. فلابد ان نفصل عند الحديث عن الجبر والاختيار عند الأخوان. وذلك واضح فى الاخلاق وتقسيمه إلى اخلاق فطرية وهى التى تأتى فيضا ووجودها كما نعلم عند الاخوان حتى يسهل على كل عضو فى الجسد أظهار الافعال. وقد بينا مدى تأثير الاديان ومحاربتها الاعواجاج الطبيعى الذى يحدث فى الاخلاق الذى هو آت من موجبات النجوم. ومدى تأثير الاخلاق المكتسبة سواء عن طريق البيئة الاجتماعية وغير ذلك فى اصلاح وتهذيب هذا العوج الخلقى مما يؤدى إلى القول بامكانية ذلك.

الاخلاق ونظرية الفيض:

جعل أخوان الصفا الاخلاق فيضا من النفس الكلية التى تلقت هى الاخلاق بدورها من العقل الأول لان الكواكب هم الملائكة عندهم كما أشارنا

(١) الرسائل جـ ٣ ص ٤٩٨.

إلى ذلك سابقاً وهم من سلسلة الفيض.

فالفيض عندهم متواتر غير منقطع وأول هذا الفيض العقل الفعال وهو جوهر بسيط روحانى نور محض فى غاية التمام والكمال وفيه صور جميع الاشياء وهذا العقل الفعال يفيض تلك الصور على النفس الكلية دفعه واحدة وهى جوهرة روحانية بسيطة قابلة للصور والفضائل من العقل الفعال على الترتيب والنظام كما يقبل التلميذ من الاستاذ التعليم.

ولما دام الفيض من البارى تعالى على العقل ومن العقل على النفس، عطفت النفس على الجسم فصورت فيه الصور والاشكال والاصباغ، لتتمه بالفضائل والمحاسن، بحسب ما يمكن من قبول الجسم وصفاء جوهره»[1].

ويطلقون على النفس الكلية اسم الانسان المطلق الذى هو خليفه الله فى أرضه فهم يقولون «لو كان الإنسان الواحد مطبوعاً على جميع الأخلاق لما كان عليه كلفه فى إظهار كل الأفعال وجميع الصنائع، ولكن الإنسان المطلق الكلى هو المطبوع على قبول جميع الأخلاق، وإظهار جميع الصنائع والأعمال لا الإنسانى الجزئى.

واعلم بأن كل الناس أشخاص لهذا الإنسان المطلق، وهى النفس الكلية الإنسانية الموجودة فى كل أشخاص الناس، كما ذكر، جل ثناؤه، بقوله: «ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة».

واعلم يا أخى، أيدك الله بروح منه، بأن هذا الإنسان المطلق الذى قلنا هو خليفة الله فى أرضه، وهو مطبوع على قبول جميع الأخلاق البشرية

(١) الرسائل جـ ٣ ص ١٩٧/ ١٩٨.

﴿٤٤٠﴾

وجميع العلوم الانسانية والصنائع الحكمية، هو موجود فى كل وقت وزمان، ومع كل شخص من أشخاص البشر، تظهر منه أفعاله وعلومه وأخلاقه وصنائعه ولكن من الأشخاص من هو أشد تهيؤاً لقبول علم من العلوم، أو خلق من الأخلق، أو عمل من الأعمال؛ والإظهار بحسب ذلك يكون»(١).

واخلاق الانسان تابعه لمدى تقبله وقربه من النفس الكلية وربطها بقوى روحانيات الكواكب والافلاك لانها هى قوى هذه النفس الكلية فيرون ان الله سبحانه وتعالى أيد نفس الانسان بقوى روحانية سائر الكواكب فى الفلك، ليكون متهيئاً له بها، وممكناً له قبول جميع سائر الاخلاق(٢).

«ثم اعلم ان العلوم فى النفس ليست بشئ سوى صور المعلومات انتزعتها النفس وصورتها فى فكرها فيكون عند ذلك جوهر النفس لصور تلك المعلومات كالهيولى وهى فيها كالصورة واعلم ان من الانفس الجزئية ما يتصور بصورة النفس الكلية ومنها ما يقاربها وذلك بحسب قبولها ما يفيض عليها من العلوم والمعارف والاخلاق الجميلة، وكلما كانت اكثر قبولاً كانت أفضل واشرف من سائر ابناء جنسها»(٣).

«واعلم يا أخى ان قوى النفس الكلية، منبثه فى جميع الاجسام التى دون فلك القمر سارية فى جميع أجزائها كلها، تسمى باللفظ الشرعى الملائكة الموكلين بحفظ العالم وتدبير الخليقة باذن الله»(٤).

---

(١) الرسائل جـ ١ ص ٣٠٥، ٣٠٦.
(٢) نفس المرجع ص ٣٩٧.
(٣) الرسائل جـ ٢ ص ٩، ١٠.
(٤) جـ ٢ ص ٦٣.

﴿٤٤١﴾

ثم إن قوى هذه النفس الكلية الفلكية السارية فى جميع الأجسام المسماه الطبيعة تنقش وتصور وتصوغ من تلك المزاجات والأخلاط أجناس الكائنات»(١).

وعندهم أن الكواكب السيارة واسطة بين طرفين فى مسألة الفيض فقد تقرب من الاشخاص العالية الفاضلة ويستمر منها الفيض وقد يتخط فتوصل الفيض إلى ثلاث الاركان التى تتكون منها المتوالدت. فيقولون:

«فقد جعلت الحكمة الإلهية والعناية الربانية للكواكب السيارة واسطة بين الطرفين اللذين هما المركز والمحيط لكيما إذا صعدت الكواكب فى أوجاتها قربت من تلك الأشخاص الفاضلة واستمدت منها الفيض، وإذا انحطت فى الحضيض أوصلت تلك الفيوضات إلى هذه الأركان فتكونت منها هذه الكائنات المتولدات التى هى المعادن والنبات والحيوان، واعلم يا أخى أنه إذا سرت تلك الفيوضات من هناك نحو مركز العالم نزلت البركات من السماء إلى الأرض»(٢).

وعندهم ان الكواكب إذا كان على نسبة الأفضل تكون الكائنات على أفضل حالها فى تلك الادوار، ويكون البشر اكثرهم أخياراً وفضلا مثل الملائكة الذين كانوا قبل أدم أبى البشر، وإذا كانت على نسبة الأدون كانت بالضدد من ذلك، ويكون البشر أكثرهم أشراراً مثل الذين يكونون فى أواخر الزمان عند خراب العالم، وإذا كانت متوسطة فبحسب ذلك تكون الكائنات. وأفضل حالات الكواكب ان تكون فى صعودها أو أشراقها أو فى أوجابتها،

(١) المرجع السابق.

(٢) الرسائل جـ ٢ ص ١٣٥.

وأدواتها ان تكون فى مقابلة هذه المواضع أو وسطاً بين ذلك»[١].

كذلك يقرر إخوان الصفا ان النفوس البشرية متفاوته الطباع فى قبول العلم فهناك من تكون نفسه مطبوعه على محبه وقد ربطوا ذلك بتأثير فلكى وهذا اشارة إلى الفيض.

«فمن الناس من لا يرغب فى التعلم والتأدب، ومنهم من يرغب فى التعلم والتأدب لكن من الناس من لا يقبل من العلم إلا ما يتصور فى نفسه أو يقوم عليه برهان هندسى أو منطقى»[٢].

فالناس جميعاً على ما يقرره الأخوان ليس جميعاً مهيئون لمراحل المعرفة حيث أن الله تعالى كما يرون قد خلق لكل نوع من العلوم أمة من الناس وجعل فى جبله نفوسهم محبة معرفتها ومكنهم من طلبها.

«كل ذلك على ما توجبه أحكام النجوم فى أصول مواليدهم وعادتهم عند نشؤئهم على سنن آبائهم وأستاذيهم ومعلميهم»[٣].

وقد ربط أخوان الصفا أيضاً مسألة الخير والشر بالفيض حيث يقررون بأنه إذا ظهر من الإنسان اخلاق موافقه لما ركز فى طبيعته بالفيض وهى ما يسمى «بالإخلاق الفطرية المركوزة فى الجبلة» سميت تلك الاخلاق خير وعكس هذا يسمى شراً» فنقول:

«أما الخيرات التى تنسب إلى جبلة الحيوانات وما فى طباعها

(١) نفسه ص ١٣٦.
(٢) الرسائل جـ ٣ ص ١٩.
(٣) الرسائل جـ ٣ ص ٥٣٣.

وأخلاقها وأفعالها بقصد منها وأرادة فهى بالقصد الثانى لا بالقصد الأول، ثم اعلم ان ما كان من قبل البارى تعالى من الابداع والايجاد والاختراع والبقاء والتمام والكمال والبلوغ وماشاكل ذلك من الأوصاف يسمى القصد الأول والقصد الثانى هو كل ما كان من قبل نقص الهيولى إنه لم يجئ منه إلا هذا.

وإما بيان أنواع الشرور، والمنسوب إلى بعض الحيوانات، وإلى الجبلة المركوزة: فإن ذلك بالقصد بالثانى وذلك انه لما كانت الحيوانات مختلفة الصور والأشكال والطباع والعادات والأخلاق والافعال جعل بين بعضها وبعض ألفه ومحبه ومودة»[1].

هكذا ربط اخوان الصفا الخير والشر بنظرية الفيض و لا شك انهم يختلفون فى ذلك مع مؤسسى هذه النظرية والاب الشرعى لها. أفلاطين. حقاً انهم يتفقون معه فى القول بالخير بالذات فالواحد عند أفلاطين والبارى عند الاخوان هو الخير بالذات وعنه يفيض العقل الأول وهو أول فعل للخير بالذات وإلى هناك خلاف بين الأخوان وافلوطين ولكن الاخير يجعل النفس الكلية استمرار للوجود الحق الذى هوالتجرد من المادة وهكذا يجعل افلوطين للشر وجوداً بالذات وهنا يظهر أول خلاف بين أفلوطين والاخوان الذين لا يجعلون للشر وجوداً بالذات وانما وجوده عندهم بالعرض. والخلاف الثانى ان أفلوطين جعل الخير بالذات قاصراً على الواحد والعقل الأول والنفس الكلية. أما الشر فهو فيما عدا ذلك من سلسلة الفيوضات فى حين ان الاخوان جعلوا الخير بالذات قاصر على البارى والعقل الاول[2].

(١) المرجع السابق ص ٤٧٩.
(٢) يوسف كرم. تاريخ الفلسفة اليونانين ص ٢٩٥.

﴿٤٤٤﴾

والوحى أيضاً فيضى عند الأخوان حيث يرون ان الانبياء يتلقون الوحى من فلك عطارد ولهذا الفلك أهمية كبيرة لأنه مبنع المعارف والمعلوم كلها.

وان النفس الكلية يقتضى بواسطة فلك عطارد على النفوس الجزئية الاكثر قبولاً، نفوس الانبياء والحكماء والعلماء «المعارف والالهام والوحى والنبوة والعلوم» تحملها قوة روحانية تنبث من عطارد وتسرى فى جميع جسم العالم واجزائه.

«فان نفوس الانبياء لما قبلت بصفاء جوهرها الفيضى من النفس الكلية اتت بالكتب الالهية التى فيها عجائب العلوم الخفية والمعانى اللطيفة والاسرار المكنونه» فالنبى لصفاء نفسه يسمع كلام الملائكة من عالم الافلاك[1].

(١) الرسائل جـ ٢ ص ٩٧. دراسات فى تاريخ الفلسفة العربية الاسلامية وآثار رجالها ص ٤٣٠.

﴿٤٤٥﴾

والخلاصة:

إن الله سبحانه هو مصدر المعرفة الإخلاقية وهو المفيض على العقل الكلى فيض نوره والعقل بدورة يفيضها على النفس الكلية التالية له والتى تفيض بدورها على الأنفس الجزئية وهم بنو الإنسان.

الخاتمة:

اتضح لنا من خلال ما سبق وهو ما استطعت الوصول إليه من مؤلفات فى هذا الجانب إن إخوان الصفا بقولهم بموجبات أحكام النجوم وتأثيرها فى الإنسان واخلاقه قد جانبوا كثير من الشريعة الاسلامية. وخالفوا سائر المسلمين فى ذلك.

وهذا المحور عند الاخوان فى مذهبهم الفكرى مردة إلى الصائبة[1]. الذين ساد فيها الاعتقاد بتعدد القوى المدبرة لهذا الكون، وأنه إذا كان هناك مثل هذه القوى فإن هناك كذلك قوة أكبر وأعلى تهيمن على غيرها وتسيطر على أفعالها وتدبرها. ولعلهم كانوا يقصدون بتلك القوى المدبرة الكواكب

(١) الصائبة: يقول الامام أبو حنيفه: إنهم ليسوا بعبده أوثان وانما يعظمون النجوم كما تعظم الكعبة. وقيل هم قوم موحدون يعتقدون تأثير النجوم ويقرون ببعض الانبياء كيحيى عليه السلام. وقيل إنهم يقرون بالله تعالى ويقرآون الزبور ويعبدون الملائكة – وقيل قد أخذوا من كل دين شيئا. شهاب الدين محمود الالوس: روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى ٢٧٩/١ – دار الفكر – بيروت ١٩٨٧. ويرتضى الحافظ ابن كثير القول بأن الصائبه قوم يعبدون ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين. وإنما هم قوم باقون على فطرتهم، ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويقتفونه، ولهذا كان المشركون يعتبرون من اسلم بالصبائى، أى أنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذ ذاك. أبو الفداء اسماعيل بن كثير. تفسير القرآن العظيم ١٠٤/١ دار إحياء التراث العربى. بيروت سنه ١٩٦٩.

﴿٤٤٦﴾

والنجوم التى أرتبط جانب كبير من الصائبة بها وبعبادتها. وليست الهياكل التى يقيمونها والطقوس والشعائر التى يؤدونها إلا وسائط تقربهم من تلك الأجرام التى حلت فيما هذه القوة العليا[١]. ويقرر أصحاب هذه الفرقة إن الصانع أبدع الفلك وجميع ما فيه من الأجرام والكواكب وجعلها مدبرات هذا العالم. فالكواكب عندهم أحياء ناطقة[٢].

يكاد رأى الأخوان يتطابق فى هذه المسألة مع رأى الصائبه ولا يستبعد أن يكون الصائبه هم المصدر الذى أستقى منه إخوان الصفا رأيهم هذا. حيث ان أخوان الصفا كما بينا سابقاً قد أخذوا من كل دين ومذهب ما يناسب عقولهم ويتلاءم مع ظروفهم. ويخدم أهدفهم.

ولا شك أن هذه الفكرة قد حوربت محاربة شديدة من قبل علماء الاسلام حيث يقول ابن تيمة فى الرد على من زعم أن الملائكة عقول أو كواكب.

«هم يفسرون العقول بالملائكة فتكون الملائكة قديمة أزلية متولدة عن الله لازمه لذاته وهذا أشر من قول القائلين بأن الملائكة بنات الله. وهذا موافقه الدهرية على العلة والمعلول[٣].

(١) المقاصد ٨٦/٢ - أستانبول ١٣٠٥هـ مطبعة محرم

(٢) سعد الدين النفتازانى: شرح.

(٣) ابن تيمة موافقة صريح المعقول جـ ١ سنه ١٣٢١ ص ٢٠٨ المطبعة الاميرية مصر.

كما ذكر الامام الغزالى فى كتابه إحياء علوم الدين. أن علم النجوم قد زجر عنه لأسباب ثلاثة الأول أنه مضر بأكثر الناس، فقد يقع فى نفوسهم أن الكواكب هى الألهة، لأنها مؤثرة.

والثانى أن أحكام النجوم تخمين محض.

والثالث: أنه لا فائدة فيه: «فأقل أحوالة أنه خوض فى فضول لا يغنى، وتضييع العمر الذى هو أنفس بضاعة الإنسان فى غير فائدة وذلك غاية الحسرة»(١).

وقد أبطل ابن خلدون علم النجوم من الناحية الدينية والعقلية. فيرى أن الشرع يرد الحوادث كلها إلى قدرة الله تعالى، ففى الحديث: «إن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته».

أما بطلانه عقليا فقد ثبت أن إسناد الأسباب إلى المسببات مجهول الكيفية، والعقل متهم فيما يقضى به. وهو يرى مدى خطر هذه الصناعة لما فيها من مضار، خصوصا على عقائد العوام، وذلك: «إذا إتفق الصدق من أحكامها فى بعض الأحايين اتفاقا لا يرجع إلى تقليل ولا تحقيق فيلهج بذلك من لا معرفة له، ويظن اطراد الصدق فى سائر أحكامها، وليس كذلك، فيقع فى رد الأشياء إلى غير خالقها، ثم ما ينشأ عنها كثيراً فى الدول من توقع القواطع، وما يبعث عليه ذلك التوقع من تطاول الأعداء والمتربصين بالدولة

(١) الغزالى: إحياء علوم الدين – العبادات ص ٥٠/ ٥١ مصر ١٣٥٦هـ – لجنة نشر الثقافة الإسلامية.

إلى الفتك والثورة، وقد شاهدنا من ذلك كثيراً[١].

هكذا نهى علماء المسلمين عن الاشتغال بعلم النجوم والكواكب مبينين بطلانه من جهة العقل والشرع.

وقد أجاب أخوان الصفا من خلال الرسائل على موقف العلماء هذا بقولهم.

«اعلم أن الفقهاء واصحاب الحديث وأهل الورع والمتنسكين قد نهوا عن النظر فى علم النجوم، وانما نهوا عنه لان علم النجوم جزء من علم الفلسفة»[٢].

فيرون ان النظر فى النجوم ليس منهياً عنه إلا بالنسبة لمن يخشى عليهم الذلل فى الفكر والعقيدة. فأما الذين قد تثبت عقيدتهم وعمق فكرهم فلا ضرر عليهم من ذلك.

«ويكره النظرفى علوم الفلسفة للأحداث والصبيان وكل من لم يتعلم علم الدين ولا يعرف من أحكام الشريعة قدر ما يحتاج إليه، فاما من قد تعلم علم الشريعة وعرف أحكام الدين. فإن نظره فى علم الفلسفة لا يضره بل يزيده فى علم الدين تحققا»[٣].

منتقدين فى موضع آخر قوماً من العلماء كانوا قد تكلموا فى أحكام

(١) ابن خلدون – المقدمة – ص ٤٨٨ دار الشعب بدون تاريخ.
(٢) الرسائل جـ ١ ص ١٥٧.
(٣) المرجع السابق.

﴿٤٤٩﴾

النجوم فأثبتوا دلائلها على الكائنات ولكنهم أنكروا أفعالها فى عالم الكون والفساد. وهم يقولون إن السبب فى إنكار هؤلاء العلماء هو لأنهم لم ينظروا إلى حقائق الأشياء كيف هى فلم يعرفوها. وأما الذين انكروا دلائلها وأفعالها فلتركهم النظر فى هذا العلم»[1].

ورغم أننى لا أوافق على ربط إخوان الصفا النفس البشرية بدورة الأفلاك وأيضاً قولهم بأن الكواكب نوع من الملائكة لكن هذه القضية قضية النجوم وارتباطها بالانسان قضية قديمة حديثة حيث أن الاشتغال بحسابات النجوم من خواص النفس البشرية إذ أن البشر يتطلعون لمعرفة عواقب أمورهم ومعرفة ما قد يحدث لهم من خير أو شر، أو ما بقى لهم فى الدنيا، كل هذا طبيعة جبل عليها البشر. تجذب أهتمامهم وترضى نوازع نفوسهم.

ومما بلغت النظر فى هذه القضية الهامة هو ما يجرى على الساحة الآن من الاحاديث التى تأتى فى الصحف والتى لا تخلوا منها مجله ولا صحيفه الا وتربط الانسان بالكواكب وحركة الإفلاك فهى قضية قديمة تناولها إخوان الصفا. وغيرهم كثيرون ليهتدوا بها فى تحقيق أهدفهم رغبة فى الامل والاصلاح. وحديثاً حيث تطالعنا بها الصحف يومياً لشد انتباه الناس حيث انها مسألة تدور فى إطار الأمور الغيبية مما يدفع جميع البشر إلى حب الاطلاع على الغيب ومعرفة اسراره.

ومن الممكن تعليل استخدام إخوان الصفا لعلم النجوم من ناحية توصيف الشخصية الانسانية إلى الآتى:

أولاً: أن يشوقوا القارئ، لينضم إلى جماعتهم فيعرف هذه الأسرار، ثم

(١)

﴿٤٥٠﴾

يعرفوه بعد ذلك أن الكواكب والنجوم إنما هى رموز للائمة المعصومين عندهم.

ثانياً: ما ساد المجتمع الذى يعيشون فيه من فساد جعلهم يتجهون إلى النجوم يتلمسون أيذانا بعهد جديد يسود فيه الخير والعدل. زاعمين أن ثمة دولة للخير ستأتى لتحل محل دوله الشر هذه معتمدين فى ذلك على أمر غيبى. من الصعب معرفته أو توقعه أو قياسه. وكأنهم حين يتجهون إلى هذه الأمور الغيبية يربطوا بينها وبين واقع الإنسان ومصيره بل ويجعلونها سبباً مؤثراً فى هذا الواقع وذاك المصير. إنما يتقبلون الأمر الواقع الذى يعيشون فيه أو يهيئون أنفسهم وأنفس من ينضم إليهم للوقع المحتم عليهم. ثم هم أيضاً يردون كل شئ إلى هذه المؤثرات الغيبية كى يتخلصوا مما قد يقعوا فيه من مأزق لو لم يتحقق ما قالوا به من تغير منتظر سوف يعم خيره على هؤلاء[1].

نتائج البحث

أحاول أن الخص أهم النتائج التى توصلت إليا من خلال دراستى للبحث ومن خلال معايشتى لأخوان الصفا وارائهم فى علم الفلك وعلاقته بالانسان. وهذه النتائج يمكن ان تتلخص فيما يلى:

أولاً: تعد رسائل إخوان الصفا مدرسة مفتوحة الأبواب فى كل علوم المعرفة. واندثار مؤلفاتهم والسرية التى أحاطت بهم لم تعطى لهم المكانة العلمية التى يستحقونها وقد يكون السبب فى ذلك إنهم من الشيعة لذلك أهمل أهل السنه تراثهم. كذلك كراهية علماء عصرهم لهم لإشتغالهم بعلم النجوم هذا.

(١) نادية عزت. فلسفة التربية عند اخوان الصفا ص ٢٨١.

ثانيا: يحاول أخوان الصفا ان يظهروا بمظهر من يوفق بين الدين والفلسفة. وإن لم ينجحوا فى هذا التوفيق بناء على ما بقى من رسائلهم – كذلك لم نجد فيه الابتكار كما وجدنا عند ابن رشد.

ثالثاً: يعتبر إخوان الصفا من رواد المفكرين فى علم الفلك والنجوم من حيث القول بأرتباط النفس البشرية بدورات الافلاك وفى توصيف الشخصية الانسانية وليس التنجيم. وما قرره الاخوان فى هذا المجال هو أحدث ما أنتهى إليه علماء العصر الحديث.

رابعا: إن موجبات أحكام النجوم عند الأخوان قدر محتوم على الانسان لا يستطيع منها فكاكا. بما يوحى بميلهم إلى القول بالجبر.

خامساً: ان الإفلاك هى منبع المعارف والعلوم كلها وإن الاخلاق فيض من النفس الكلية.

سادساً: أهمال عامل الوراثة فى الانسان عند أخوان الصفا. معلقين كل شئ على الكواكب والنجوم. فأولاد الملوك يصبحون مثل آبائهم، وأولاد الفقراء من العامة غالباً ما تكون لهم سيرة الأباء، وليس فى قدرة الإنسان أن يغيرها فهى ثابته والسبب فيها تأثيرات النجوم وحركات الكواكب.